# خصائص
# الأدب العربي في شبه القارة

إعداد
الأستاذ الدكتور خليل الرحمن *

لكل أدب – بلا ريب– خصائص عامة ترسم سماته الرئيسية، وهذا ما أستعرضه في هذه المقالة سطحية، صارفا النظر عن التفاصيل الفنية لكل ضرب من فنونه إلى ما بعد، حين نسلط الضوء على كل منها على حدة.

فأول ما نراه من خصائص لهذا الأدب العربي، أنه أدب لم يساهم العرب فيه مباشرة، كما لم يأخذه الهنود عن أصحاب اللغة وأهلها بلا واسطة، وإنما أخذوه عن عجم آخرين مثلهم، فكان أدبا عربيا أنتجه الهنود وهم ليسوا عربا، بعد أن تعلموا العربية على يد الفرس وهم عجم، هكذا كان في أغلبه ..فالذين نشروا الإسلام ولغته

---

*- مدير مركز الشيخ زايد الإسلامي (جامعة كراتشي).

وعلومه في شبه القارة كانوا عجما ولم يكونوا عربا، وهذه نقطة هامة سنرى آثارها على هذا الأدب ونحن نبحث في تفاصيله.

وتحقيق ذلك أن غزوات العرب في بلاد السند لم يكن لها الأثر الذي بالغ بعض المؤرخين في ذكره وتصويره، كما أن الصلات بين العرب والهنود وإن تعاظمت قبل الإسلام إلا أن مؤرخينا أهملوا العصر الجاهلي، ثم لما أعادوا صياغته اعتبروه شرا كله وكفرا وفسوقا فضاعت حقيقة تاريخ هذا الدور، ومن هنا لم نقف على شيء من التأثير والتأثر على نحو أدبي واضح باستثناء نتف متناثرة هناك وهناك [1].

وكما بالغ مؤرخونا في تشويه وطمس كل ما كان في عصور ما قبل الإسلام بين العرب وغيرهم بل وما كان في البيئة العربية ذاتها، بالغوا أيضا في صياغة الحروب والغزوات، ومنها غزوة محمد بن قاسم فنسبوا إليه نشر الإسلام ولغته في الهند، وما في قولهم شئ من الإنصاف[2]، فالحجاج الذي سفك دماء مآت الألوف من المسلمين في

---

[1]- لمزيد من التوضيح انظر تاريخ الأدب العربي للدكتور توفيق برو، ص ١٦، وما بعدها، دمشق سنة ١٩٨٤م، والمفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام للدكتور جواد علي ٧/٢٤٠، وما بعدها بيروت سنة ١٩٨٠م.

[2]- أنظر مثلا تاريخ الإسلام في الهند لعبد المنعم النمر ص ٧٤، مصر ١٩٥٩م، تاريخ العالم الإسلامي للدكتور محمد الطيب النجار ١٨٥-١٨٧، جدة ١٩٨٥م، وفتوح البلدان للبلاذري ٤٣٥- ٤٤١ ليدن ١٨٦٦م، وحركة التأليف باللغة العربية للدكتور جميل أحمد ص ٥، كراتشي بدون تاريخ، ومؤلفات اطهر المباركبوري.

دار الإسلام، ولم يأبه بشرع أو دين ما كان ليهمه أمر نشر الدين في خارجها[1]، وسلوك محمد بن القاسم في بلاد الهند لم يكن سلوك داعية ينشر الإسلام ويحرص عليه فحين وصل إلي الديبل مثلا مكث يقتل في أهلها ثلاثة أيام[2]، وقتل من أهل برهمناياد ستة وعشرين ألفا وتركها خرابا [3] حتى إذا وصل إلى ملتان وانهزم أهلها بعد حصار شديد قتل منهم محمد بن قاسم المقاتلة وسبي الذرية [4]، وليس هذا شأن الدعاة ولا سيما إذا أخذنا بالروايات التي تقول إن دافع حملة الحجاج على بلاد السند لم يكن لنشر الإسلام ولغته بل كان لملاحقة المعارضين لاستبداده من بنى هاشم بعد أن فروا من ظلمه إلى الهند [5] ، كذلك لم تكن سياسة الدولة الأموية وتفضيلها العرب على غيرهم وتعصبها في ذلك سياسة تجذب إليها قلوب العجم بل نفرتهم في الداخل والخارج، والدليل على أن الحجاج وابن أخيه لم يبتغيا بسفك دماء الهنود نشر دين الله السمح، أن خبر الفتح حين بلغه قال متشفيا: شفينا غيظنا وأدركنا ثأرنا وازددنا ستين ألف ألف درهم (علاوة على نفقات الغزوة)

---

[1]- للإطلاع على أحوال الحجاج انظر البداية والنهاية لابن كثير ٩/١-١٣٩ بيروت ١٩٨٨م.

[2]- فتوح البلدان ص ٤٤٠ــ الكامل لابن الأثير ٢٢١/٤، مطبعة السعادة مصر بدون تاريخ.

[3]- فتوح البلدان ٤٣٧.

[4]- نفس المصدر السابق.

[5]- تاريخ المسلمين في شبه القارة للدكتور أحمد الساداتي ٥٧/١، مصر ١٩٥٧، تاريخ الإسلام في الهند ص ٧٣- ٧٤.

ورأس داهر [1]، ولو كان فيما فعله ابن القاسم في الهند خير الدولة ما أمر بعزله سليمان بن عبد الملك بعد وفاة الوليد وما حبسه في سجن واسط بالعراق واشتد في تعذيبه حتى مات، والباحث المفكر يتساءل كيف يضرب الخليفة الوليد بن عبد الملك الكعبة بالمجانيق، ويفعل واليه الحجاج بالمسلمين ما فعل، ثم يغزو قائده العسكري الصغير محمد بن قاسم في سبيل الله ويهتم بنشر دينه؟.

نعم أسفرت حملته عن استقرار بعض الأسر العربية في السند كالماهانية في سنجان (١٩٨-٢٢٧هـ) والهبارية في المنصورة(٢٤٧-٤١٦هـ)، والسامية في ملتان (٢٨٠-٣٦٠هـ) والمعدانية في مكران (٤٣٠-٤٧١هـ)، والمتغلبية في قصدار على ما ذكر بعض المؤرخين [2] إلا أن هذه الأسر بقيت في أماكنها في الجزء الشمالي الغربي في مقاطعة السند، فلم يكن فتح العرب للسند إلا احتلالا لولاية واحدة في أقصى الغرب، لا هي بالواسعة الرقعة ولا بذات الموارد الغنية والأرض الخصبة[3] لأن المسلمين خرجوا بعد قليل عن بلاد الهند، ورفضوا مراكزهم، وقد كفر أهل الهند إلا أهل قصة فلم ير للمسلمين ملجأ يلجاؤن إليه إلى أن وجهت إليها حملات في العصر العباسي [4].

---

[1]- فتوح البلدان البلاذري ٤٤٠، الكامل لابن الأثير ٤/٢٢٠.

[2]-هندوستان مين عربون كي حكومتين للقاضي أبو المعالي اطهر المباركبوري كراتشي ١٩٦٧م ص ٢٢.

[3]- تاريخ المسلمين في شبه القارة ١/٨١.

[4]- فتوح البلدان ٤٤٣- ٤٤٤.

والواقع أن انتشار الإسلام وما تبع ذلك من انتشار لغته في شبه القارة الهندية كانت وراءه عوامل أخرى أقلها التأثير العربي، منها أن بعض حكام الهنود مثل الملك زامورين في ساحل مالابار في القرن التاسع الميلادي أراد التودد إلى المسلمين ودولتهم القوية سياسيا واقتصاديا حفاظا على مصالحه، فأصدر أمرا يفرض على كل أسرة من المساكين في دولته أن تربي واحدا أو اثنين من أبنائها على الديانة الإسلامية [1]، وهذا نموذج لعله تكرر في ولايات ومملكات هندية أخرى تماما كما تفعل الدول الصغرى في عصرنا مع القوى العظمى بمختلف الأساليب.

ومنها أن المجتمع الهندي في زمان ازدهار الدولة الإسلامية ساده الضعف السياسي بسبب الصراع الدامي بين الديانات الهندوسية والبوذية والجينية ومن تبع كلا منها من الملوك فكانت الهند مشغولة بانقساماتها، مستاءة من دياناتها، تتوق إلى جديد وتشتاق إلى معرفة دين تلك الدولة العظمى التي يفصلها عنها بحر يعبره تجارها ويحملون معهم أخبارها [2].

غير أن أهم عاملين في نشر الإسلام ولغته العربية هما:

---

[1]- تاريخ الإسلام في الهند ص ٦٧.

[2]- تمدن هند بر اسلامي اثرات د. تاراجند الترجمة الأردية لاهور ١٩٦٤م ص ٥٩ وانتشار الإسلام في العالم للدكتور عبد الله الطرازي ١/٤١، جدة ١٩٨٥م.

أولا: هجرة العلماء على نحو واسع من أكناف الدولة الإسلامية في فارس وما وراء النهر بسبب القلاقل السياسية بحثا عن ملجأ آمن يستقرون فيه سواء في عصر اضمحلال الدولة العباسية وما صحبه من نشوء دويلات مختلفة في بلاد فارس، أو بعد سقوط الخلافة العباسية واجتياح المغول لها، وإحراقهم وتدميرهم للمكتبات ودور الثقافة الإسلامية ومراكزها، ولم يكن أمام العملاء إلا الاتجاه من الشمال إلى الجنوب طلبا للأمن والدعة عند ملوك الدول التي نشأت في الهند من القرن الحادي عشر حتى القرن الثامن عشر الميلادي ومن بينها دول فتية شجع سلاطينها العلم والعلماء، كالدولة الغزنوية والغورية والمغولية، هؤلاء العلماء أسسوا مدارس تحولت إلى مراكز إشعاع انخرط فيها الطلاب.

ثانيا: أقطاب العرفان الذين ساحوا في شبه القارة منذ أيام الغزنوي في القرن الخامس وظلوا يفدون إلى الهند من بلاد فارس حتى القرن الرابع عشر كالشيخ الهجويري والشيخ إسماعيل البخاري، وفريد الدين العطار، ومعين الدين الجشتي، وجلال الدين التبريزي، وجلال الدين البخاري، وبابا فريد شكر كنج، وعبد الكريم الجيلي تلميذ ابن عربي، ومير شاه الجيلاني، وبهاء الدين زكريا، وقطب الدين بختيار كاكي، وجلال الدين سرخ بوش وغيرهم [1].

---

[1] – تمدن هند بر اسلامي اثرات ص ٧٩ وما بعدها.

أما التأثير العربي المباشر في الأدب العربي في شبه القارة فكان في ساحل مليبار أو مالابار بجنوب الهند بعد أن استقرت به بعض الأسر الفارة من اضطهاد الحجاج ثم تلتها قوافل التجار خاصة في العصر العباسي ولكن ما يندى له الجبين أن مصادر هذا التأثير لم يصل إلى أيدينا منها إلا قليل كما سيأتي بيانه، وإن كان هذا لا يعنى عدم وجود مصادر وافية بلغات هذه المنطقة، وفي مكتباتها، وتحتاج إلى من يكشف عنها من الباحثين، وما ينبغي ذكره هنا هو أن الأدب العربي في ساحل مليبار الذي يقطنه الشافعية من المسلمين الهنود، وهو ما سندرس نماذج منه- يعتبر نموذجا للتأثير العربي المباشر في شكل جماعي يمكن دراسته كظاهرة أدبية على عكس الحال في شبه القارة الذي تأثر الأدب العربي فيه في أغلبه بالثقافة الفارسية، ومع ذلك فإن التأثير العربي المباشر في شمال شبه القارة لمسناه في شكل حالات فردية انصبت في معظمها على الفرص التي أتيحت لهذا أو ذاك من الأدباء في الاتصال بالبيئة العربية والاستفادة منها فاختلف أسلوبه عن أساليب الآخرين كما سنرى في باب النثر وعند الحديث عن أعمال رضي الدين الصغاني، ومرتضي الزبيدي، وعبد العزيز الميمني، لكن هذا التأثير بقي كما قلنا رهن ظروف كل فرد على حدة، فكان التأثير الفارسي ساد أغلب إنتاج الأدباء في الشمال، بينما ساد التأثير العربي معظم إنتاج أدباء العربية في الجنوب.

وقصدنا من هذا كله باختصار أن الإسلام واللغة العربية زحفا على أغلب الهند عبر فارس يشهد بذلك أهل الهند نفسها كما يشهد به أهل الغرب.

يقول الدكتور عبد الله مبشر الطرازي إن أول حملة بحرية للعرب على سواحل الهند كانت عام ١٥ هجرية في عهد الفاروق رضي الله عنه وأرضاه بقيادة عثمان بن أبي العاص واليه على البحرين دون أمر الخليفة الذي غضب عليه وهدده وتوعده ثم وافق بعد ذلك على فتح الهند، "ولكنه اشترط أن تكون الحملة برية عن طريق بلاد فارس" [١]، بل إن حملة ابن القاسم ثم حملة الخراساني في العصر العباسي تمت عن طريق فارس [٢].

ويقول عبد الحي الحسني اللكنوي: "إعلم أن الإسلام ورد الهند من جهة خراسان وما وراء النهر فانعكست أشعة العلم على الهند من قبل تلك البلاد"[٣].

ويقول جوستاف لويون: "فغزاة المسلمين الأولون كانوا من الأفغان والترك، وغزاة المسلمين الآخرون كانوا من المغول مع شيء من النماذج، وأما العرب الذين هم من أتباع محمد السابقين فلم يقيموا مستمعرات مهمة في الهند، وإن كانوا يجيئون إليها في الغالب من

---

[١] – انتشار الإسلام في العالم ٤٦/١.

[٢] – فتوح البلدان ٤٣٧.

[٣] – الثقافة الإسلامية دمشق ١٩٨٣م، ص ٩.

بلادهم مجاوزين بحر عمان للتجارة فينشئون المستودعات ويستولون عنوة على أملاك في السواحل الغربية نحو مصب نهر السند" [1].

"فمسلموا الهند لم يدخلوا إلى الهند في الحقيقة سوى حضارة العرب بعد أن تحولت بعض التحول في بلاد فارس بفعل الأزمنة والأمكنة والاختلاط بالشعوب المغلوبة وذلك على درجات مختلفة ومع دوامها على التحول، وأدخل المسلمون معهم إلى الهند نظم الدول العربية القديمة السياسية أيضا، وكانت هذه النظم السياسية تحمل في تضاعيفها المحاسن التي أدت إلى ازدهار الدول العربية فيما مضى والمساوئ التي أوجبت انحطاطها" [2].

هذا الاستطراد التاريخي اضطررنا إليه اضطرارا لأن السائد بين الدارسين أن ابن القاسم هو صاحب الفضل في نشر اللغة العربية والدين الحنيف في شبه القارة، وليس هذا بصحيح، بل اللغة العربية انتشرت بانتشار الإسلام على أيدي العجم وكان جلهم من أهل فارس، وإنما أردنا تأكيد هذه الحقيقة ونحن بصدد الحديث عن خصائص الأدب العربي في شبه القارة لنعرف مكانة هذا الأدب وما عمل فيه من مؤثرات، ولننظر إليه نظرة تقدير لكونه أدبا عربيا أنتجه عجم خلص دون أن يكون للعرب فيه أية مساهمة.

---

[1] – حضارة الهند الترجمة العربية مصر ١٩٤٨م، ص ٤١٨.

[2] – نفس المصدر ص ٤٢٢.

ومن أراد الاطلاع على حقيقة أن العرب ما اهتموا بنشر اللغة العربية وكتبها في شبه القارة كما اهتم بذلك المستشرقون والهندوس حتى أن منشئ نولكشور الهندوسي نشر أربعة آلاف كتاب معظمها من الكتب العربية والفارسية، فليراجع مقال الدكتور أحمد خان عن مساهمة علماء شبه القارة في نشر الكتاب العربي، وهو مقاول تناول بالتفصيل تاريخ دخول الطباعة في شبه القارة ودور المستشرقين والإدارات العامة، والخاصة والمؤسسات العلمية في الهند وباكستان في نشر الثقافة العربية، والمقال قرئ في الموسم الثقافي الدولي بالكويت في نوفمبر عام ١٩٩٣م [١].

ومن الأدباء من صرح بكون الفارسية وسيطا له من النفوذ والأثر مثل محمد زمان خان (ت ١٢٩٢هـ) في كتابه "سفينة البلاغة في صناعة الإنشاء والرسائل حيث قال في مقدمته:

"....غير أنني غيرت ترتيب الكلام حيثما اقتضاه المقام، واختصرت بعض التراكيب أخذا للمرام، وحين نقلت بعض المآرب من الكتب الفارسية صرت ترجمانا بين العجم وأهل العربية" [٢].

ومنهم من خلط الفارسية بالعربية في نظمه مثل محمد عباس التستري (ت ١٣٠٦هـ) في منظومته أجناس الجناس، وأحمد

---

[١]- أطلعني الدكتور أحمد خان رئيس قسم إحياء التراث الإسلامي بالجامعة الإسلامية العالمية بإسلام آباد، على هذا المقال قبل سفره إلى المؤتمر.

[٢]- سفينة البلاغة ص ١٢- ١٣ الهند، ١٣١١هـ.

الرسولبوري (ت ١٣٥٩هـ)، ومنهم من نقل المحسنات والبدائع الفارسية وتأثر بها حتى صار شعره العربي بعيدا عن مزاج اللغة وأهلها مثل غلام علي آزاد البلكرامي (ت ١٢٠٠هـ) وكل هذا سنراه سويا بالتفصيل في فصول الكتاب.

وقد عقدت في إسلام آباد ندوة دولية في سبتمبر ١٩٩٣م، عن الروابط الثقافية بين إيران وشبه القارة ثم طبعت أبحاث المشاركين فيها في مجلدين يمكن لمن أراد المزيد مراجعتها ففيها كثير من الجوانب الهامة التي يضيق المجال لذكرها هنا، ونشير إلى مقال الدكتور ساجد الله تفهيمي ومقال على جنتي، ومقال الدكتور غلام سرور ففي هذه المقالات مادة كثيرة تؤيد ما نريد قوله هنا.

ولنا أن نتخيل مدى تأثير الفارسية على بيئة الثقافة والأدب في شبه القارة من كتاب الأستاذ أحمد كلجين معاني المسمى بـ"كاوران هند" أي قافلة الهند والذي يقع في مجلدين عظيمين حيث أعد فيه قائمة بالشعراء الفرس الذين هاجروا إلى شبه القارة في العهد الصفوي فقط، بسبب عدم تشجيع الصفويين للأدب وبسبب الأوضاع السياسية في إيران آنذاك، وقد بلغ عدد هؤلاء ما يقرب من ثمانمائة شاعر"[١].

---

[١]- مجموعة سخنرانيهاي نخستين سيمنار بويستغيهاي فرهنغي ايران وشبه قارة ١/٢٠٨، ٢١٤، ١/١٦-٢٠، ١/٢١-٢٣، طبع باكستان ١٩٩٣م.

والذي لا شك فيه أن هجرات العلماء والأدباء من فارس إلى شبه القارة كان لها أكبر الأثر في نشر الأدب والدين واللغة العربية في شبه القارة، وهو ما لم يتيسر للعلماء والأدباء الذين بقوا مقطوعي الصلة عن منطقتنا في أغلب الأحوال فلم يكن لهم تأثير يذكر.

ومن خصائص الأدب العربي في شبه القارة – ثانيا- أنه أدب نشأ حول الدراسات الإسلامية وفي أحضان المدارس الدينية، فلا عجب أن نرى فيه كثيرا من الشروح للكتب التي أدخلها العلماء في مقررات الدرس في مجال الأدب كالمعلقات، وديوان المتنبي، ومقامات الحريري، والمطول، والكافية والشافية، وديوان الحماسة، وقصائد البردة وبانت سعاد وألفية بن مالك.

ومع أن أديبا كبديع الزمان الهمداني جاء إلى الهند واشتهر أمره فيها زمان السلطان محمود الغزنوي واشتهرت مقاماته ورسائله بين أدبائها وعلمائها وتوفي في ٣٩٨هـ، بينما توفي الحريري في ٥١٦هـ، إلا أن شيئا من مقاماته أو شعره أو رسائله لم ينل حظه من اهتمام أدباء العربية في الهند رغم رقة مقاماته وجودة رسائله وعذوبة شعره، فلم أعثر إلا على شرح واحد لمقاماته ذكره عبد الحي الحسني في الثقافة الإسلامية بعنوان" الياقوت الرماني شرح مقامات الهمداني لوكيل أحمد السكندربوري" [١]، وليس ذلك إلا لأن كتب الهمداني لم تكن داخلة في مناهج المدارس الدينية، وقد ذكر الحسيني

[١]– الثقافة الإسلامية ص ٥٤.

في كتابه مناهج هذه المدارس في أدوارها المختلفة وما أدخله علماء إيران فيها من كتب ذكرا مفصلا فليرجع إليه من يشاء" [1].

ولأنه أدب نشأ حول الدراسات الإسلامية نجد أدباءه إذا صنفوا في فنون الأدب الخالصة أصروا في مقدمات كتبهم على أن هذا خدمة للدين ولغته، أو ربطوا بين موضوع الكتاب وبين الدين بشكل أو بآخر، فصديق حسن القنوجي (ت ١٠٣٧هـ) يقول في مقدمة كتابه" نشوة السكران من صهباء تذكار الغزلان".

"نحمد من زين رياض الوجوه بنرجس اللحاظ وورد الخدود، وثمر أغصان القدود برمان النهود حمد من خاف مقام ربه ونهي النفس عن الهوي، وشبب بذكر محبوبه إن كان تهاميا في حجاز أو شاميا في توي، ونصلي ونسلم على من حث على تهذيب النفس الأبية عن الرذائل الدنية، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه الذين يحبهم ويحبونه، ويقفون عندما أمرهم ولا يتعدونه، ما ذر شارق وهام، عاشق وبعد، هذا بيان العشق والعشاق والمعشوقات من النسوان، وما يتصل بذلك من تطورات الصبورة والهيمان ..." [2]

وفي مقدمة ديوان أحمد الرسولبوري :"لا يخفى أن علم العربية من العلوم الدينية الإسلامية، كما لا يخفى أن مسلمي الهند من أقدم العصور بذلوا سعيهم في سبيل تعليم اللغة العربية ونشر المعارف

---

[1] – نفس المصدر ص ٩ وما بعدها.

[2] – نشوة السكران ص ٢، الهند ١٢٩٤هـ.

الأدبية، وكيف لا وبين الإسلام وبين علم اللغة العربية علاقة لا يستغني عنها كل من أراد علم الدين والشريعة"[١].

ومن خصائص الأدب العربي في شبه القارة – ثالثا– أنه أدب سلطاني تمحور حول الأبلطة، ورعاه السلاطين والأمراء والأغنياء، ومن ثم فهو أدب مبتور الصلة بالواقع، يمدح السلطان لأنه يبسط يده بالنعم والعطايا، ويرثيه إذا مات، أو مات له قريب، أما البوساء والفقراء والمجتمع بصورته الحقيقية فلا ذكر له في هذا الأدب، ذلك لأنه يدور مع السلطان حيث داء حتى المناهج التعليمية في المدارس الدينية وضعت تحت إشراف الأمراء والسلاطين والأغنياء"[٢].

وتحركت الحركة الأدبية وفق حركة السلاطين وأمراء الدويلات في مختلف المدن الهندية، فلما صارت ملتان مدينة العلم نهض منها كثير من العلماء، ثم لما صارت مدينة لاهور قاعدة الملك أيام الغزنوية صارت مركزا للعلوم والفنون، ثم لما افتتح الغوري مدينة دلهي، وجعلوها عاصمة البلاد المفتوحة من الهند صارت مرجعا ومأربا للعلماء إلى آخر الدولة التيمورية [٣]. وكذلك حدث في كجرات والدكن

---

[١]– ديوان أحمد ص ١، الهند ١٩٥٨م.

[٢]– المسلمون في الهند أبو الحسن الندوي ص ٨٤، الهند ١٩٨٧م، وانظر حركة التأليف باللغة العربية في الإقليم الشمالي الهندي للدكتور جميل أحمد ص ٥٤، كراتشي بدون تاريخ.

[٣]– الثقافة الإسلامية ص ١٠.

وجونبور ولكنو واوده، بمدنها مثل بكرام وهركام، وجانس، وكاكوري وخير آباد وغيرها.

ونظرا لأن السلطان – أي سلطان– لا يحب العلماء المعارضين لتصرفاته ونزواته المخالفة للدين الذي يحكم الناس باسمه، انقسم العلماء إلى قسمين:

أولهما: لا يعارضه وهؤلاء عاشوا منعمين مترفين.

ثانيهما يقول كلمة الحق ويلقي في سبيلها الهوان والاضطهاد، ذلك أن ممارسات وسياساتْ أغلب سلاطين الهند لم يكن للإسلام فيها كبير اهتمام، بل خالفوا الشرع في أكثر أمور حياتهم [1].

جاء في مذكرات الملك جهانكير ابن الملك أكبر: "علمت وأنا في دلهي أن فتنة اشتعلت في قنوج فأرسلت كتائب لإطفائها فقتل ثلاثون ألفا من العصاة، وأرسل عشرة آلاف رأس مقطوع إلى دلهي، وصلبت عشرة آلاف جثة صلبا معكوسا في سوق الشجر المغروس على جوانب الطرق العامة، وعلى ما ترى من المذابح لم تفتأ الفتن تنشب في الهند ولا تجد ولاية من ولايات الدولة لم يذبح فيها خمسمائة ألف شخص في عهدي وعهد أبي" [2].

---

[1]– أنظر تفاصيل ذلك في حضارة الهند ص ٤٢٩ وما بعدها.

[2]– نقلا عن حضارة الهند ص ٤٢٧– ٤٢٨.

ولعل رسائل الشيخ أحمد السرهندي إلى أتباعه تصور لنا شيئا من واقع المجتمع وسياسة من حكموا باسم الدين يقول في رسالة له: "واحزناه، واحسرتاه وامصيبتاه...." إن أتباع محمد صلي الله عليه وسلم وهو محبوب رب العالمين غرباء، مهانون في بلادهم، وأعداءه مكرمون، إن الباطل بارز ومنصور، وإن الحق مخذول مستور"، ويقول في رسالة أخرى: "لقد أتى على الإنسان والمسلمين حين من الدهر في هذه الديار إذا عمل مسلم بحكم شرعي يسجن ويعاقب ويهان ويعذب، والديانات كلها حرة متمتعة بكل حق، لقد شملت بالمسلمين الأعداء، وسخروا منهم وأصبحوا هدفا لكل تجريح وإهانة" [1].

لكن شيئا من هذا كله لم يحرك قرائح الأدباء والعلماء، فلم نجد عنه حرفا في ما أثر عنهم من نثر أو شعر عربي، لأن هذا الأدب سلطاني، ولأن السلطان كان يعرف كيف يرضي الأدباء، فقد وزن الملك شاهجان الملا عبد الحكيم السيالكوتي بالفضة مرتين، كما وزن القاضي محمد أسلم الهروي مرة بالذهب [2]، وكانت هذه طريقة السلاطين مع أدباء وعلماء البلاط، وكانوا يعطونهم هذه الأموال، وقد وقعت في عهد شاهجان هذا مجاعات حتى ذبح الناس أولادهم، وأكلوهم بفتوى من العلماء [3]، وفي عهده تغلغل البرتغاليون وسيطر

---

[1] - الدعوة الإسلامية في الهند أبو الحسن الندوي ص١٦،الهند ١٣٧٨هـ.

[2] - المسلمون في الهند ص ١٣٦.

[3] - تاريخ المسلمين في شبه القارة ١/٢٤-٢٥.

تجارهم على الدولة وتعاظم خطر المبشرين [1]، ولم يحرك شيء من هذا مشاعر أدبائنا، فبقي أدبهم حبيس أسوار البلاط، لا يرى ما في خارجها في أغلب الأحوال، وإذا رآه لم ينفعل به ، وسنمر على ذلك مرة أخرى حين نتحدث عن الأدب السياسي.

وفي مقابل هؤلاء العلماء أحباء السلاطين، كان هناك أقطاب التصوف وأهل العرفان الذين شكلوا في الهند دولة داخل الدولة خلال جميع العصور الإسلامية تقريبا، لكن السلاطين كان لهم معهم أسلوب آخر، حكي الأستاذ أبو الحسن الندوي يقول: " كان السيد آدم البنوري دفين البقيع يأكل على مائدته كل يوم ألف رجل، ويمشى في ركابه ألوف من الرجال، ومئات من العلماء، ولما دخل السيد لاهور عام ١٠٥٣هـ كان في معيته عشرة آلاف من الأشراف والمشائخ وغيرهم حتى توجس شاهجان ملك الهند منه خيفة فأرسل إليه بمبلغ من المال ثم قال له قد فرض الله عليك الحج فعليك بالحجاز، فعرف إيعاز الملك وسافر إلى الحرمين حيث مات" [2].

وتاريخ الهند مليء بما فعله السلاطين مع من لم يخضع لهم من العلماء، ومن الطريف أن أحدا الباحثين هو الأستاذ السيد صباح الدين عبد الرحمن ألف كتابا ممتعا عن العلاقة بين سلاطين الهند المسلمين وبين العلماء والمشايخ، وكيف كان سلوك السلاطين مع المعارضين

---

[1] – نفس المصدر ١٩٢/١.

[2] – المسلمون في الهند ١٠٦.

معهم وسلوكهم مع العلماء الدواجن، وقسم العلماء والمشايخ إلى أقسام كأصحاب الفطرة الطاهرة النقية، والمشغولين بالتدريس والمدارس، ومعاوني السلاطين والحكام، والعلماء النفعيين، والشجعان الجاهرين بالحق، والناقدين للسلاطين وما إلى ذلك، فمن أراد المزيد فليرجع إليه [1].

والأدب العربي في شبه القارة – رابعا- لم يعكس العمق الحضاري الذي تيسر له بعد أن التقت على تراب أرضه حضارة فارس العريضة بحضارة الهند الخصيبة، وكان بوسع أدبائه الاستفادة من الأدب الفارسي، وأخيلته وتنوع موضوعاته شعرا ونثرا، وتلقيحه بالآداب الهندية وأخيلتها، وإنتاجها العريض المنظوم والمنثور، فتلد لنا قرائحهم بنات أفكار أدبية شكلا وموضوعا غاية في الحسن وآية في الجمال، خاصة وأنهم جميعا عرفوا الفارسية وكتبوا بها، وتزاوجوا بها وعاشوها ومارسوها بكل أبعادها ونظموا فيها، ولذلك اختفت – تقريبا- القصة والرواية نثرا وشعرا من هذا الأدب، وكان بوسعهم الاستفادة من فن المثنوي في نظم الروايات التاريخية أو قصص العشق التي امتلأت بها بيئة الهند وراجت في الأدب الفارسي رواجا كبيرا.

كذلك اختفت القصة على لسان الحيوان وهو فن راج في الأدبين الهندي والفارسي، ولم أعثر إلا علي نظم واحد في هذا المجال لكليلة

---

[1] – هندوستان ك سلاطين علماء اور مشائخ ك تعلقات بر ايك نظر، سيد صباح الدين عبد الرحمن ص ١١– ٣٤، الهند ١٩٦٤م.

ودمنة، ذكره عبد الحي الحسني في الثقافة الإسلامية [1]، مجرد ذكر ولا أظنه موجودا في المكتبات إذ لم يذكر مؤلفه بل قال لبعض علماء البواهر أي طائفة البهرة.

واختص الأدب العربي في شبه القارة – خامسا- بتقليدية الموضوعات في أغلبه فمدح الرسول والأصدقاء والأمراء، ورثاء المحبة وأبناء الأمراء والسلاطين والزهد والعرفان، هي الموضوعات الأساسية التي شكلت العمود الفقري للشعر العربي في شبه القارة، اللهم إلا عند بعض الشعراء المتأخرين مثل فيض الحسن السهارنبوري في القرن العشرين حيث هجا مدينة لم تعجبه، وكتب مشاعره حين دخل اللصوص بيته وسرقوا متاعه ووصف حاله وبعض جوانب مجتمعه كما سنقف على ذلك حين نتحدث عن ديوانه.

وتقليدية الموضوعات استلزمت عدم التجديد إلا في قليل، أما الشكل فقد وقفنا على محاولات عند شعراء كالمفتي محمد عباس التستري الذي استفاد من المثنوي (المزدوج) في منظومته أجناس الجناس، وآزاد البلكرامي الذي حاول إدخال الغزل – وهو قالب من قوالب النظم الفارسي والأردي- لأستوعب معاني عربية، وكذلك نظمه في المستزاد والترجيع بند وهي قوالب تشبه المخمسات والمسدسات والمسمطات التي اشتهرت في عصور اضمحلال الشعر العربي في البيئة العربية، ومثل الرباعيات على الأوزان الفارسية التي نظمها

---

[1]- ص: ٥٤.

محمد أفضل فقير أو محاولة النظم الحر الحديث عند الدكتور خورشيد رضوي وكلاهما شاعر معاصر.

غير أن هذه المحاولات في مجملها لم يكتب لها الشهرة لأنها اختارت قوالب هندية أو فارسية خالصة لم يعرفها العرب، باستثناء محاولة الدكتور رضوي، وبالجملة فإن الأدب العربي في شبه القارة لم يجدد أصحابه في الموضوعات بقدر ما حاولوا ذلك في القوالب والأشكال.

والخصوصية السادسة للأدب العربي في شبه القارة أنه أدب ارتبط بحقبة تاريخية معينة كانت للمسلمين فيها السيطرة على مقاليد الحكم حتى وإن كانت سيطرة ضعيفة، فلما زال حكمهم واحتل الإنجليز الهند اضمحل الأدب العربي فلما استقلت الهند انتهى الأدب العربي، وبقي تعليم اللغة العربية في المدارس الدينية والجامعات سيفا خشبيا لا يفيد في شيء، وأصبح تعلم اللغة للبحث عن عمل في دول العرب الثرية، لا لما فيها من أدب ولا لينتج الدارسون فيها أدبا، ذلك لأن اللغة الإنجليزية أصبحت لغة الحضارة فقضت على الفارسية والعربية وما ارتبط بهما من لغات وثقافة وأدب، أضف إلى ذلك ضعف المناهج في مراكز تعليم اللغة العربية في الجامعات والمعاهد والمدارس الدينية وانقراض الأساتذة وقحط العلماء.

والخاصة السابعة لهذا الأدب أن نضجه لم يخضع لدورة الحياة الطبيعية في الآداب بحيث نستطيع تمييز أدواره ومميزات كل دور منها

كما هو الحال عند الحديث عن الآداب الأخرى، فنشوء الآداب وارتقاؤها يقتضي أن تسير الحركة الأدبية سيرا طبيعيا فتنشأ ضعيفه، ثم يشتد ساقها وتورق ثم تثمر إلى أن تشيخ وتذبل، لكن هذا لم يحدث في الأدب العربي في شبه القارة فالإغراق في الصنعة اللفظية مثلا عند أبي الفيض ابن المبارك المتوفى عام ١٠٠٤هـ، نجده أيضا عند عباس التستري في القرن الرابع عشر الهجري، ونجده بعينه عند فضل الحق الخير آبادي المتوفى سنة ١٢٧٨هـ، أي في القرن الثالث عشر الهجري، فأبو الفيض بن المبارك يقول في وصف كتابه "سواطع الإلهام [١].

صراح لأصل الأصل طرس مطهر  سواء لكل الكل علس مطهم

أمام همام للكلام مؤول  صلاح سديد للسلام مسلم

مدار مراد للمدارك مطرح  ملاك كلام للمعلم معلم

ويقول المفتي محمد عباس التستري [٢]

لطفت لنا وأنزلت الكتابا  وتغفر إن يكن ذو الشرك تابا

هو المولى ونحن له عباد  ومن سلكوا خلاف الشرع بادوا

---

[١]- نزهة الخواطر عبد الحي الحسن اللكنوي ٣٠/٥، الهند ١٩٧٦.

[٢]- الثقافة الإسلامية ص ٤٩.

يكرم بالعطايا من أتاه ومن يجحد بنعمته فتاهوا

ويقول فضل الحق الخير آبادي [1]

فؤادي هائم والدمع هامي وسهدي دائم والجفن دامي

وقلب ما فتى بجوع ولوع ولوع في اضطراب واضطرام

فأنت ترى في هذه الأمثلة أن الصنعة اللفظية هي ما يشغل قائليها على تباعد السنين والأعوام بينهم، كذلك لا نستطيع التفريق بين سهولة نثر عبد الحكيم السيالكوتي المتوفى ١٠٦٧هـ، وبين أسلوب الصغاني المتوفى ٦٥٠هـ، أو عبد الرحيم الصفي بوري المتوفى سنة ١٢٦٧هـ، على أساس التقسيم الزمني إلى حقب وأدوار.

وهذه الخاصة في اعتقادنا تعود إلى أن الأدب العربي في شبه القارة رغم عظمته قد غرس في بيئة غير بيئته فنما نموا غير طبيعي، فنحن إن جئنا ببذور أشجار وغرسناها في غير بيئتها قد تصح منها فرادي، ويموت ويذبل كثير، وينشأ بعضها أعوج السوق أو مريض الأغصان أو مر الثمار، فتبقى صحة النشأة مرتبطة بجودة البذرة، وحسن الغرس والتعهد لكل شجرة على حدة، وهكذا الأمر في ما وصل إلى أيدينا من إنتاج أدبي بعد فحصه ودرسه، فكل أديب من أدباء

---

[1] – نفس المصدر ص ٤٨.

العربية في شبه القارة اعتمد إنتاجه على مدى صلاحية قريحته ومزاجه وحسه الأدبي وأستاذه وظروف تربيته وتعليمه وربما أصله، دون أن يكون للدور الزمني في رسم سمات إنتاجه دخل.

ويرى الدكتور ظهور أحمد أظهر أن بعض هذه الخصائص كان له دخل في اضمحلال هذا الأدب علاوة على عوامل أخرى، ففي مقال عن بواكير الشعر العربي في شبه القارة عدد هذه الأسباب كما يلي:

١- القوة السياسية العربية كانت قد ا انتهت ولم تعد تمد الحكم العربي في السند وملتان وما إليهما من المناطق، تلك القوة السياسية التي تعول عليها اللغة دائما في السيادة والنفوذ والتي كانت قد جعلت من العربية لغة البلاط الحكومي، والديوان في السند الغابر كما جعلت منها لغة التخاطب والسوق وقد انتهت هذه القوة السياسية بسبب ضعف الخلافة العباسية وانحطاطها ولم يعد الحكام والولاة يستمدون قوتهم واستنادهم من الخليفة في بغداد وإنما كان الحكم لمن غلب وقهر غيره خلال الجو الفوضوي الذي سبق الحكم الغزنوي في هذه المناطق التي تتكون منها باكستان اليوم.

٢- وقد كان من الطبيعي أن تنقطع الصلات الثقافية المباشرة بين بلاد العرب وعواصمها الأدبية والثقافية وبين بلاد شبه القارة وذلك بعد نهاية الحكم العربي واستقلال المتغلبين من الحكام وحين سدت الطرق في وجوه المتوافدين من جهتين وانقطع التبادل الثقافي المباشر ولم يتصل بعد ذلك حتى يومنا هذا.

٣- وقد كان من بين العقبات التي حالت دون العربية وآدابها في جنوب آسيا هو ذلك الأسلوب الأدبي المتكلف المتصنع من السجع والقافية والكلمات الوحشية الغريبة ذلك الأسلوب الذي اختاره بديع الزمان الهمذاني، وأبو القاسم الحريري وأضرابهما فقد كان أسلوبا ثقيلا عقيما وعقبة خطيرة هائلة في سبيل العربية بل كان هذا الأسلوب المتكلف العقيم جناية كبرى على العربية وعلى مستقبلها الزاهر كلغة وحيدة للعالم الإسلامي، كله فقد عرقل هذا الأسلوب سيرها وأثقلها على الألسنة فلولا هذه الجناية الكبرى على العربية لما كانت الفارسية السهة السلسة الحلوة التي حلت محل العربية، ولولا الفارسية حلت محل العربية في إيران وما إليها من البلاد لكانت العربية هي اللغة الوحيدة للموكب الإسلامي الحضاري أينما كان وحيثما حل.

٤- وأما القائمون بخدمة اللغة العربية وآدابها في شبه القارة فقد ضلوا هم الآخرون طريقهم وغاب كل شيء عن نواظرهم غير الأسلوب المتكلف العقيم من السجع والقافية فراحوا يتلاعبون بالألفاظ دون المعاني، واكتفوا بما وصل إليهم من لعبة الألفاظ وشعوذتها فعكفوا عليها يتلاعبون بها وحين لم يعد من مقدرتهم أن يتلاعبوا بها وقفوا حائرين مندهشين أمام ذلك الأسلوب المتكلف العقيم ولا يزالون كذلك حتى اليم.

٥- ثم جاءت أخطر مرحلة من تاريخ العربية وآدابها في شبه القارة وذلك حين لم يقدروا على التعبير أو قل على التكلف والتصنع فقرروا أن يتعلموا العربية ويعلموها كلغة ميتة لا تفهم ولا تكتب كالسينسكريتية والإغريقية واللاتينية من اللغات القديمة العتيقة الميتة، واكتفى المدرسون بأن يقرؤوا النص العربي للطلاب ثم يترجموها لهم إلى لغة محلية فقط، وهذه هي الحال التي نحن عليها في باكستان اليوم" [١].

وقد لا يختلف الحال في الهند عنه في باكستان كثيرا، مع كونها أدباء العربية في باكستان وفي وضع أفضل، يشجع على تعليم العربية ودراستها وتدريسها والكتابة بها.

وهذه هي خصائص الأدب العربي في شبه القارة أوجزناها هنا باختصار واجمال صارفين النظر عن التفاصيل.

---

[١]- مجلة المجمع العربي الباكستاني لاهور العدد الثاني نوفمبر ١٩٩٣م، ص ٢٩- ٣٠.